المحاضرة 08: قضية التأويل بين القديم والجديد

تمهيد:

من المؤكد أن قضية التأويل من القضايا المهمة التي أثارت وتثير الكثير من النقاش بين الدارسين والباحثين في شتى مناحي الحياة الفكرية والأدبية والنقدية ، فهي من الظواهر التي مارسها الأصوليون والنحويون قديما وحديثا، وارتبط ذلك بالنصوص الشرعية كالقرآن الكريم ،مختلفين فيه ما بين مفرط ومعتدل في الأخذ به، وذلك لخصوصية النص القرآني فإنه من الضروري على كل باحث يريد فهم معاني القرآن واستنباط الأحكام أن يفقه موضوع التأويل حتى يعلم متى يؤوّل ومتى لا يفعل ذلك. فماهو مفهوم التأويل؟ وكيف كانت العناية بهذا الموضوع قديما وحديثا؟

مفهوم التأويل:

لغة:".. وأوّل إليه الشيء: رجعه وأُلت عن الشيء: ارتددت...وأوَّل الكلام وتأوله دبَّره وقدَّره، وأوله وتأوله فسره والتأويل المرجع والمصير مأخوذ من آل يؤول إلى كذلك أي صار إليه "هل ينظرون إلَّا تأويله " و"يوم يأتي تأويله" و"ما يعلم تأويله إلَّا الله"[1] وأوَّل الكلام تأويلا وتأوّله دبَّره وقدَّره وفسَّره والتأويل عبارة الرؤيا[2] . فالتأويل في اللغة هي رجوع الشيء إلى أوله أو إلى أصله.

اصطلاحا: أورد ابن منظور قولا لابن الأثير جاء فيه:" المراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما تُرك ظاهر اللفظ"[3]، وقد وردت العديد من التعريفات لدى العلماء لمعنى التأويل ، يعّرفه الشريف الجرجاني في كتابه" التعريفات":"

---

[1] – لسان العرب ص172 (اول).

[2] – القاموس المحيط ص866 (اول).

[3] – لسان العرب ص172 (اول).

التأويل في الأصل الترجيع، وفي الشرع صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا للكتاب والسنة[4].

وعن مفهوم التأويل كما ورد في القرآن فهو علم إلهي ولا دخل للبشر فيه، وجاءت لفظة التأويل بمعنى تفسير الرؤى والإخبار عن غيب في الدنيا، أو يوم القيامة... وردت كلمة التأويل في مواضع متنوعة في القرآن الكريم وتعددت معاني التأويل فيها،نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر:

– وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن **تَأْوِيلِ** الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴿6 يوسف﴾

– لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا **تَأْوِيلُ** رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا ...﴿100 يوسف﴾

– مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ **تَأْوِيلِهِ** وَمَا يَعْلَمُ **تَأْوِيلَهُ** إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي ...﴿7 آل عمران﴾

–قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ **بِتَأْوِيلِ** الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤ يوسف﴾

–قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ **بِتَأْوِيلِ** مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨ الكهف﴾

–وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ **تَأْوِيلًا** ﴿35 الإسراء﴾

مثلا في الآية السابقة 78 لسورة الكهف **سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ، في قصة موسى والعالم ، فالتأويل هنا تأويل الأفعال التي فعلها العالم من خرق السفينة بغير إذن صاحبها ومن قتل الغلام ومن إقامة الجدار فهو تأويل عمل لا تأويل قول، وإنما كان كذلك لأن التأويل مصدر أوله يؤوله تأويلا مثل حول تحويلا وعول تعويلا. وقوله في موضع آخر" وابتغاء تأويله" أي تحريفه، ومعنى قوله تعالى:" ذلك خير وأحسن تأويلا "أي أحسن عاقبة.

تجدر بنا الإشارة هنا إلى الفرق بين التأويل والتفسير، فالتأويل هو نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل، لولاه ما ترك ظاهر اللفظ، ومعنى هذا أن المراد هو تأويل حمل اللفظ على المعنى المجازي أو الاستعاري، أما التفسير فهو قصر اللفظ على معناه

---

[4] – الشريف الجرجاني،، معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، 2004،ص:46.

الحقيقي، وقد بين الشريف الجرجاني[5]الفرق بينهما من خلال مثال من القرآن في قوله تعالى:﴿ يُخرِجُ الحَي من الميّتِ﴾يونس:31، فإن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيرا. وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان ذلك تأويلا.

– **التأويل في النقد العربي القديم:** عُرف التأويل عند العلماء المسلمين المشتغلين بفهم آي القرآن الكريم،وتفسير معانيه،فلم يتوقف الأمر عند النص الديني، بل انتقل اعتماد التأويل إلى حقلي الأدب والنقد، خصوصا ما تعلق بالنصوص الشعرية؛ ذلك أن التأويل يساعد على كشف خبايا بعض ما استغلق من المعاني، فقد أدرك النقد العربي منذ القديم أن النص الأدبي غني بالدلالات، يحتمل وحوها عديدة من التأويل، ومن صور التأويل في النقد القديم:

1–**القاضي الجرجاني:** يبين الجرجاني في كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" أن التأويل يسمح بتعدد احتمالات المعاني للنص الواحد، ومثال ذلك ما قاله عن بيت المتنبي:

مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

فقال: فختم القول بأنه لاشرف له بآبائه، وهذا هجو صريح، وقد رأيت من يعتذر له، فيزعم أنه أراد: ما شرفت فقط بآبائي، أي لي مفاخر غير الأبوة، وفي مناقب سوى الحسب. وباب التأويل واسع والمقاصد مغيبة، وإنما يستشهد بالظاهر، ويتبع موقع اللفظ[6]. فالتأويل واسع عند الجرجاني، والمعاني تكون ظاهرة أحيانا، وبعيدة مخفية وراء الألفاظ في أحايين أخرى ويرى بأن هناك من"أراد أن يلتمس الأعذار للشاعر فيما أخطأ فيه فأشار ناقدنا إلى أن هناك من أوّل شطر البيت الأول تأويلا خاطئا بناءً على النية والمقصد،مدّعيا أن المتنبي أراد أن يشير إلى أن له مفاخر أخرى غير مفاخر الأبوة، في حين يرى هو أن المقصود هنا هو ذاك الذي ظهر من خلال اللفظ"[7].

---

[5] – نفسه، ص:46.

[6] – الوساطة بين المتنبي وخصومه ص374.

[7] – نفسه ص312.

2-**ابن رشيق القيرواني:** يتحدث ابن رشيق عن التأويل حين أورد بيتا لامرئ القيس في وصف فرسه تحت ما سماه "باب الاتساع" ، في قوله: "وذلك أن يقول الشاعر بيتًا يتسع فيه التأويل، فيأتي كل واحد بمعنى،وإنّما يقع ذلك لاحتمال اللفظ وقوته، واتساع المعنى، يقول امرئ القيس في وصف فرسه:

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ، مدبر معاً كجُلمود صخرٍ حطَّه السّيلُ من عَلِ "[8]

اكتشف العلماء أنَّ الحصان فعلاً يكّر ويفّر في الوقت نفسه، وكان ذلك مِنْ خلال مراقبتهم لجريّ الحصان؛ إذْ لاحظوا أنّه أثناء جريّ الحصان تكون رجلاه الخلفيّتان تتقدّم في اللّحظة نفسها التّي تتأخّر فيها رجلاه الأماميّتان، وعندما تبدأ رجلاه الأماميّتان في التقدّم تتحوّل حركة رجليه الخلفيّتين إلى التأخّر؛ وهكذا يُقْبِلُ الحصان ويُدْبِرُ، ويَكِرُ ويَفِرُ في الوقت نفسه. أمَّا عن قوله (كجلمود صخر)؛ فالجلمود هو أحد أنواع الصّخور ويُسَمُّونَه الصّخر الأصّم؛ والمقصد هنا أنَّ الفرس عندما يكّر ويفّر ويُقْبِلُ ويُدْبِرُ يكون كالكتلة الواحدة وتكون حركتُه في اتّجاهٍ واحدٍ ، وقال بعض من فسره من المحدثين إنّما أراد الإفراط فزعم أنّه يُرى مقبلاً ومدبرًا في حال واحدة عند الكر والفر لشدة سرعته واعترض على نفسه واحتج بما وجد عيانًا فمثله بالجلمود المنحدر من فيه الجبل فإنّك ترى ظهره في النصبة على الحال التي ترى فيها بطنه وهو مقبل إليك ولعل هذا ما مرَّ قط ببال امرئ القيس[9].

3-**عبد القاهر الجرجاني:** منهج عبد القاهر في التعامل مع النص، منهج متنوع قوامه التفسير والتحليل وحسن التعليل،فهو يصرّح في غير موضع في كتابيه"أسرار البلاغة"و"دلائل الإعجاز" بضرورة إعمال الفكر والتدبّر في المعني لبلوغ ما خفي واستتر منها، مبيناأن لذلك العناء حلاوة الوصول إلى الغاية،يقول: "ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نِيل

---

[8] ابن رشيق،العمدة ،ج2،ص94.

[9] - ابن رشيق،العمدة،ج2،ص:115.

بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ، ومعاناةِ الحنين نحوه ؛ كان نَيلُه أحلَى ، وبالمزِيَّة أولى ، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف،وكانت به أضَنَّ وأَشْغَف"[10].

ويذهب في مواضع أخرى إلى فائدة الاستعارة والتشبيه وقيمتهما الجمالية،في إشارة إلى دورهما في تعدد الاحتمالات والتأويلات، فالاستعارة كما يرى الجرجاني تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ،في قوله:"وإنَّكَ لَتِجِدُ اللفظة الواحدة قد اكتسبتَ بها فوائد حتى تراها مكرّرة في مواضعَ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأنٌ مفردٌ، وشرفٌ منفردٌ، وفضيلةٌ مرموقة، وخِلاَبةٌ موموقة، ومن خصائصها التي تُذكرَ بها، وهي عنوان مناقبها، أنَّها تُعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تُخرجَ من الصدَفة الواحدة عِدّةً من الدُّرَر، وتَجْنِيَ من الغُصْن الواحد أنواعاً من الثَّمر"[11] . ولذلك يدعو الجرجاني إلى الغوص والتأويل في باطن الكلام حتى تستطيع أن تصل إلى معانٍ متعددة وذلك كلّه بفضل الاستعارة. أما في تعريفه للتشبيه يقول:" إعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين: أحدهما:أن يكون من جهة أمربيَّن لايحتاج إلى تأوّل والآخر:أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأوّل"[12]، وفي سبيل توضيح ذلك يورد نماذج كثيرة من الشعر، ومن هنا نستجلي فائدة التأويل كآلية تسمح بالغوص في أعماق النصوص، المتوقفة على إعمال الفكر والتي تستدعي بديهة الخاطر وتوقد الذهن، بغرض إزالة الستار عن المعاني الخفية والدلالات العميقة والبعيدة.

-التأويل في النقد الجديد:

أدرك النقاد العرب في العصر الحديث أمثال طه حسين، ومحمد زكي العشماوي، وجابر عصفور، وغيرهم مّمن اهتموا بدراسة التراث النقدي، أن النقاد القدامى اعتمدوا على التأويل

---

[10] – أسرار البلاغة ص: 139.

[11] – أسرار البلاغة ص43.

[12] – أسرار البلاغة: ص90.

بوصفه آلية تسمح بالكشف عن مختلف المعاني التي يمكن أن تختفي وراء التراكيب اللغوية المتضمنة لاحتمالات عديدة.

ومصطلح التأوبل بمفهومه الحديث من المصطلحات المستحدثة التي دخلت الدرس النقدي،فنجده عند النقاد العرب يدخل تحت مسميين:التأويل،والهيرمينوطيقا(الصيغة الغربية للمصطلح)[13]. تمثل هده الأخيرة معظلة تفسير النص،سواء أكان تاريخيا أم إبداعيا أم دينيا، وهي تركز اهتمامها على علاقة المفسر بالنص، وهي علاقة جدلية لا صيغة تلقيفية تحاول أن تتوسط بين نقيضين،فظاهرة التأويل في قراءة النص الشرعي لم تنقطع مع مرور الزمن وإنما تختلف بناء على الآليات التي يتم بها فهم النص. لذلك أصبحت نظرية النص التأويل الحديثة أكثر قربا من مقاصد النصسترتكز على المعاني الكامنة خلف النص المقروءوتتجاوز المعنى إلى الدلالة،فالنص الفني هو النص الذي يحث على الدراسة المستفيضة والتأويل ويتطلبها مما جعل النقد الحديث يقف أمام مرجعية التأويل التي تجعل من الاحتكام للسابق واللاحق ثقافة قابلة للتجديد والوصول إلى المعرفة ومن تقنيات التأويل الحديثة: 1-اللغة الشعرية 2-الدلالة الشعرية 3-التشكيل البصري 4-الرمز الشعري.[14]

---

[13] – ينظر: كاظم فاخر حاجم،التأويل عند النحويين والبلاغيين والمفسرين القدماء والمحدثين، مجلة دراسات البصرة كلية الآداب قسم اللغة العربية،جامعة دي قار،ع22، 2016،ص:248.

[14] – نفسه، ص:249.